

# الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبدِ الرَّحمنِ لَاونَدُ

برنامج هل تعرفني؟



إبراهيم عبد القادر المازني

مؤثرات موسيقية...

قضى غير مأسوفٍ عليه من الورى

فتى غره في العيش نظم القصائد

وقد كان مجنوناً تضاحكه المنى

وفي ريقها سم الصلال الشوارد

فعاش وما واساه في العيش واحد

ومات ولم يحفل به غير واحد

ولم يبكه إذ مات إلا أجيبة

لها زفرة لولا اللهى لم تصاعد

وجاء إلى الدنيا على رغم أنفه

وراح على كره الأمانى الشوارد

أراد خلود الذكر في الأرض ضلة

فأورده النسيان مرّ الموارد

صدقوني. هذه أبيات قتلها أرثي بها نفسي قبل أن أستريح في رمسي بعد طول العناء وشدة الشقاء. وماذا

رأيت في دنياي غير تلك الصور الكالحة التي تذكّرني بالفقر الذي لازمني، والعاهة التي لحقت برجلي، والأسى

الذي فرّق بيني وبين عائلتي، والقصر الدميم الذي جعلني أنظر إلى الناس من تحت.

هل تعلمون أنني بعد الطواف الطويل في دنيا الأحياء لم أجد غير المعاني التي قدّمت بها كُتبي إلى البشر من الأحياء؟ هل تعلمون مثلاً أنني لم أجد غير : حصاد الهشيم - وقبض الريح - وخيوط العنكبوت؟  
ضربة موسيقيّة...

ومع ذلك فقد استطعت أنا الأديب البائس أن أدخِلَ الفرحة إلى قلوب الناس. لقد أضحكُتهم حتى ظنّ الكثيرون أنّ لي من هذا الإضحاك نصيباً. وما دروا أنّ القلم الذي يضحكُ قلوب الناس ويُشيع السرور في نفوسهم عاجزٌ عن أن يدخل شيئاً من ذلك إلى قلب صاحبه. ولستُ في هذا بدعاً من أصحاب الأقلام الضاحكة. إنّ هناك كثيرين غيري وهبوا سواهم نعمة الضحك ولكنهم سقطوا تحت وطأة الشقاء. إن مولير، الأديب المسرحي الفرنسي، واحد من هؤلاء الأشقياء الذين أضحكوا الملايين ولكنهم لم يعرفوا متعة الضحك أبداً حتى جاءهم هادم اللذات ومفترق الجماعات، فكان الموت بالنسبة لهم عوناً على التحرّر من سجن دنياهم.  
ضربة موسيقيّة...

- ولدت عام 1890 في مدينة القاهرة. وليس بالقليل أن أكون من مواليد هذه المدينة! أوليست أمّ الدنيا في نظر كثيرين من الناس؟ لكنّ سوء حظي أراد لي غير ذلك. لقد كتب عليّ به أن يكون لي أبوان فقيران. ثمّ زاد الطين بلّة حين مات عتيّ أبي، المحامي الشرعي، وأنا بعد صبي صغير، ويتركني لليتم المبكّر وشظف الحرمان. لكنني لشيء لا أدريه لم أقعد عن الدرس، فقد اجتمعت لي ظروف خاصة دفعت بي إلى مدرسة ابتدائية ثمّ التحقت بالمدرسة التوفيقية فالخديوية. حتى إذا نلت شهادة التعليم الثانوي دخلت مدرسة الطب التي لم أحتمل ما يجري فيها من بشاعات التشريح والعمليات الجراحية الرهيبة فأغمي عليّ أمام أول مشهد من مشاهد هذه العمليات، فأثرت العافية وتحوّلت إلى مدرسة المعلمين العليا التي تخرجت منها عام 1909 م.

ضربة موسيقيّة..

- هل سمعتم بالمثل العامي القائل: "المنحوس منحوس ولو علّقوا له فانوس"؟ فأنا هذا المنحوس. واعترافي بنحسي لا يخالطه أي إحساس بالمرارة. ولماذا أجد هذه المرارة وقد أصبحتُ فيلسوفاً؟ وهل الفلسفة غير الحصييلة الحتمية للنحس؟

- المههم أنّي اخترت التدريس مهنة. فاشتغلت في هذه المهنة الشريفة باديء الأمر في المدارس الأميرية ثمّ انتقلت إلى المدارس الخاصة. فلم ألبث بعد ثماني سنوات من الكدّ في هذا الميدان حتى اقتنعت بأنّي قد أدّيت قسطي من العلا فتزكت التدريس وقلت في نفسي: ابحت عن حظك في غير هذا المجال، فقد لازمك من وقوف الحال ما يجب معه العمل لغير هذه المهنة. وقد وجدت في الصحافة التي بقيت أعمل فيها ثلث قرن تقريباً ما يعفيني من رتبة التدريس، ويكوييني في الوقت نفسه بنار مهنة المتاعب كما يحبّ رجال الصحافة أن يقولوه عن مهنتهم هذه.

ضربة موسيقية... .

ويبدو أنّ القدر قد هبّ لي من أسباب الشقاء ما يكفي لإنضاج أدب البؤس الضاحك في نفسي. لقد اجتمعت عليّ حرقة اليتيم، وضؤولة الجسم، وخسارة الزوجة، وعاهة العرج الدائم. ثمّ قلت في نفسي: لأتزوج مرّة أخرى فلعلّ نصيبي مع الزوجة الثانية ان يكون خير منه مع الزوجة الأولى. وقد تزوجت حقاً لكنّ القدر رماني بابنة لي منها ثمّ اختطفها مني هي بالذات، فوصلني بالحزن وبقيت حياتي كلّها من بعد طريد الألم أندب حظي العاثر في المنشأ والخلقة والأسرة. واكتشفت بعد لأيّ أنّ النعمة لا تذهب في الريح هباءً ضائعاً في الفضاء بل تتحوّل عند بعض الناس طبيعة أدبية مصقولة وثقة بالنفس كبيرة وحساسية شديدة أيضاً.

ضربة موسيقية.....

- ولا أخفي عليكم أنّي قد اتجهت إلى الآداب الغربية أهل منها ما استطعت. فقرأت شعر الغربيين وقصصهم وفنوناً من آدابهم وتأثرت بطرقهم وأساليبهم في العرض والمناقشة. وكم كنت متأثر بالأدباء الغربيين المطبوعين ممّن عجنت الآلام نفوسهم وشاركوا البائسين في همومهم وأحزانهم. وليس هذا وحسب. فقد حاولت جهد الطاقة أن أعيش أدبي وأن يكون ما أكتبه رواية لما يجري في واقع حياتي فيه حرارة الحركة وتوتر الطموح. وكان لهذا النوع من الحياة أثر خاص في تعريفني بفنون من رجال العهد حكّاماً ومحكومين، علماء وأدباء وموظفين، فلاحين ومدنيين، رجالاً ونساء.

ضربة موسيقية....

- كتبت شعراً ونثراً. أما في الشعر فقد تعاونت مع عبد الرحمن شكري وعباس محمود العقاد في القيام بتجربة شعرية جديدة. وهي تجربة تقوم على تغيير الموضوع وإشاعة الحركة والواقعية في صوره وكلماته والتحرر من الإطار الشعري القديم مع الحفاظ على الوزن. لقد نادينا نحن الثلاثة بوحدة البناء الموضوعي في الشعر يكون فيه كل بيت بمثابة لبنة من لبنات القصيدة المتناسكة. وأجزنا للشعراء تغيير الوزن في القصيدة الواحدة وسمحنا بالقوافي المزدوجة بحيث تتغير القافية في كل بيتين أو أربعة أبيات، كما يتعدّد الوزن في القصيدة الواحدة على طريقة الموشّحات.

- وقد استقبلنا نحن الثلاثة ديوان حافظ إبراهيم بالنقد المرّ الشديد، وكتبت أنا شخصياً عدداً من المقالات العنيفة أكشف فيها عن بشاعة القصيدة القديمة المفكّكة الأبيات، والتي تعتمد على المبالغة في المديح متجنّبة فن التعبير الطبيعي عن العواطف الدافئة عند الشاعر وانفعالاته الوجدانية. ثم أخرجت ديوانين من الشعر أولهما عام 1914 وثانيهما عام 1917 م. وضعت فيهما وصفاً لخوارج نفسي وتأملاطي أمام الكون والحياة الإنسانية.

ضربة موسيقية.....

قلتُ إنّ حياتي كانت معجونة بالآلام. وأقول الآن إنّ هذه الظاهرة لم تمر فوق سطح حياتي كما يمرّ الظل العابر. بل كانت بمثابة العدسة المصوّرة التي سجلت في أمانة ودقة قصة الآم الآخرين. فكان كل بيت من شعري بمثابة العنوان الصارخ على مأساة الألم في حياة البشر:

كل بيت في قرارته جثة خرساء مرنان

خارجاً من قلب صاحبه مثلما يزخر بركان

نعم، لقد كانت كل خاطرة في ذهني قطعة من نار وشواظاً من هب. لكنّ نار الألم لم تحوّل روحي إلى رماد، ولم تبعث اليأس في نفسي، بل جعلت مني الأديب الثائر الذي يتحدّى كل المعوّقات. صوّرتُ هذه المشاعر في قصيدة ( ثورة النفس ) جاء فيها:

تراغمني الأحداث حتى كأنني وجدت على كره من الحدثان

فلا هي تصمي القلب مّيّ إذا رمت ولا ترعوي يوماً عن الشنآن

أبيت كأن القلب كهف مهدم برأس منيف فيه للريح ملعب  
أو أبيت في بحر الحوادث صخرة تناطحها الأمواج وهي تقلب  
سأقضي حياتي نائر النفس هائجا ومن أين لي عن ذلك معدي ومذهب؟  
على قدر إحساس الرجال شقاؤهم وللسعد جو بالبلادة مشرب  
هكذا يمضي شعري كله. صور قائمة ولكنها ليست يائسة. إنَّ فيها لهباً من الثورة ولوناً من ألوان التشاؤم.  
إنَّ في قصائدي من ذبول الورد، وأحلام الموتى، وما بعد الموت، وقبر الشعر، والملل من الحياة، وخواطر  
الظلام، ومن الليل والههم، والاحتضار، ما يكفي لإعطاء صورة واضحة عنه.  
ضربة موسيقية..

وفي يقيني أنَّ الكثيرين منكم لم يعرفوني بعد على حقيقتي. ذلك أنَّ لي شخصيتين: الشخصية المأساوية في الشعر  
الذي حدثتكم عنه، والشخصية الهازلة الضاحكة التي سأنقل إليكم صورة خاطفة عنها. ولا تعجبوا من تلاقي  
هاتين الشخصيتين المتناقضتين، فكم من ضحكات نصنعها عند الناس تكون ثمرة للألم الدفين الذي يعتصر  
قلوبنا نحن كتاب الأدب الهازل. ولعلنا نحن أن نشعر بالحاجة إلى هذا النوع من الأدب وقد حرمتنا الإحساس  
العميق بالفرح الأصيل. ولا شك أنَّ معاناة المأساة قد كشفت لي عن المفارقات التي تثير الدهشة والضحك  
عند من يستبين مواطنها من حياة الناس. كما أنَّ هذه المعاناة بالذات قد ساعدتني على الكشف عن أدقِّ  
الخوارج النفسية التي تتحرك بها قلوب وتتاثر بها الوجدان الحي.

هل قرأتم مثلاً ما كتبه عن ابنتي التي أودعتها الثرى زهرة ناضرة كانت قبل وفاتها تملأ عليّ حياتي بالفرحة  
والبهجة؟ وهل تبينتم من خلال ما وصفته من اضطرابها بين يدي وعبثها بي وبأوراقها أنها كانت نوراً في عيني  
ودفقاً في قلبي وسلاماً لروحي؟  
ضربة موسيقية.....

اسمعوا أقل لكم حقيقة إنسانية مدهشة.....  
هل تعرفون كيف يمتزج البكاء بالضحك، وكيف يختلط الحزن بالفرح، وكيف نستبين في الحب الساذج الذي  
تحفل به قلوبنا أمام الطفولة تجاعيد الشيخوخة وقيامه الذكريات لحياة متعبة مكدودة؟

هكذا كنت حين أكتب عن الأطفال، أو حين أتحدث إلى الطبيعة في خضرتها المعشوشبة، وأزرار الشجر المثمرة وأوراق الأزهار الناضرة. في هذا كله أجد فرحة العمر وسعادة الحياة. ضربة موسيقية..

اسمحوا لي هنا أن أقف بكم عند صورة من الصور الهازلة تركتها لكم مع غيرها من الصور في كتاب "صندوق الدنيا". قلت في هذه الصورة متحدثاً عن نفسي وقد تخيلتني على ظهر حمار يسير بي فوق قنطرة على ماء. فلما توسّطها الجحش بدا له أن يقف، وراقه منظر الماء، فأجال فيه عينيه برهة، ثم حظا إلى حافة الجسر، ولم يكن له حاجز، ومد عنقه إلى الماء، فظننت أنه قصير النظر، وأنه يفعل ذلك ليكون أقدر على رؤية خياله في الماء، واجتلاء طلعتة البهية في صقاله، ولكنهم قالوا لي: إنه كان يريد أن يشرب، فنزلت عنه، وقلت له: يا عزيزي إن من دواعي أسفي أنني مضطر أن أتركك إلى الماء وحدك، فإنّ ثيابي يفسدها الماء وهي غالية إذا كانت حياتي رخيصة. ولكن بعد أن فكر قليلاً غير رأيه، إما لأنّ الصورة التي طالعتة في صفحة الماء كانت مضطربة مشوهة، وعجز الماء عن أداء ما فيها من جمال وروعة، أو لاعتبارات حمارية أخرى لم يكشفني بها". ضربة موسيقية...

هل تحبّون أن تتعرفوا الى صورة أخرى من الصور الهازلة في أدبي؟ هاكم قصة خادمتي العجيبة في كتابي "عود على بدء".

كنت "لا أطلب منها شيئاً إلا وتحييني بخلافه. أقول هاقي الكبريت، وليس في لفظ الكبريت ولا في حروفه ما يمكن أن يلتبس بالجبن الرومي، وهي ليست بالصماء، فإنّ سمعها كسمع القطعة، وأنا خفيض الصوت ولكني أتوخّى معها أن أزعق وأصيح، حتى لبيح صوتي ويوجعني حلقي، وأمراض يوماً أو يومين. ومع ذلك لا تكاد تسمعني أطلب الكبريت حتى تقول حاضر وتعمد إلى ملاءة سوداء تُلّفها على نفسها، فإنها حيية، وتخرج فتشترى لي جبناً، قد يكون رومياً غير مزيف أو مقلّداً، ولكنه لم يخطر لي على بال ولا كانت لي رغبة فيه. وأراها مقبلة عليّ تحمل على كفيها صينية عليها طبق من الجبن الرومي وشوكة وسكينة قوطة ولقمة، فإنها تدرك من تلقاء نفسها وبغير حاجة إلى تلقين أنّ الجبن الرومي لا يؤكل وحده، فلا بد من خبز معه، وما دام سيدها سيأكل، وقد اشتتهت نفسه الجبن الرومي، فهل تركه يوسخ يده؟ معاذ الله. وهذا هو تفسير الشوكة والسكين،

وأنظر إلى هذا الذي على يديها، فأتميز من الغيظ وأكاد أطق وأنفلق، ولكي ألم نفسي بجهد، وأهز رأسي وأروح أتعجب لقدرة الله على خلق كل هذه الأصناف من الناس. هذه امرأة لها كل ما لي تقريباً من الأعضاء، وليس ينقصها شيء، وهي تتكلم العامية التي نتكلمها، ولا أعرف لها لغة غيرها، ومع ذلك لكل لفظ في هذه اللغة معنى عندها غير معناه عندنا، فالكبريت معناه الجبن الرومي، والكتاب معناه طاحونة البن، والكلب معناه الخيط والإبرة، والكمون معناه السجاير".....

ضربة موسيقية....

- هل عرفتموني الآن؟ وقبل أن أعرفكم بنفسي يهمني أن أحذركم من هذه المزاعم التي تحاول أن تصوّرني على صورة الداعية إلى العامية. معاذ الله أن أكون من هؤلاء القوم. فأنا قلت وأقول إنّ مهمة الأديب أن يبحث عن الكلمة النابضة بالحياة. فإذا وجدها في العامية وقد سبق أن خرجت من الفصحى أعادها إلى مكانها الأساسي وحسب. أما العامية التي ترفض شرف الفصحى وقوانينها وروعها فهي ليست منّي وأنا لست منها. وأخيراً أقول لكم إنّ محدثكم هو الفقير إليه تعالى إبراهيم عبد القادر المازني...